

جذور القبلية الغربية

2018-01-09 بروجيك سنديكيت

SAMI MAHROUM

أبو ظبي - في رواية هيرمان هيس "رحلة إلى الشرق"، يصف شخص مبتدئ في مجموعة دينية تُعرف باسم العصبة نفسه في صورة بجانب زعيم المجموعة، ليو، قائلاً: "يبدو أنه، في الوقت المناسب، كل مادة من صورة واحدة سوف تندفق إلى الأخرى وسوف تبقى في الأخير واحدة فقط: يجب على ليو أن يتطور، أما أنا فينبغي أن أختفي".

هنا يصف هيس تضحية الفرد من أجل قضية كبرى. لكنه يصور أيضا كيف يخلق الناس أبطالهم. سواء كان فلاديمير لينين، تشي غيفارا، روح الله الخميني، هوغو شافيز، أو حتى دونالد ترامب، "الأبطال" في عين الناظر. فهي مثالية انعكاسات الذات. وكما يوحي وصف هيس، فإن الصورة البطولية تتغذى أيضا من الذات، لدرجة أن الفرد يجب أن يختفي.

القبلية هي في صميم هذه العملية. ولأن لدى البشرية شوق عميق للشعور بالانتماء والقيادة، فإن البشر يشكل بطبيعة الحال مجموعات مع قادة راسخين. بعض المجموعات هي مظاهر إيجابية للتعاون والتضامن بين الأفراد. ولكن عندما تقوم الجماعات على أيديولوجية أو قبيلة معينة، فإنها يمكن أن تصبح تمييزية وقمعية تجاه غير الأعضاء، وخاصة إذا كان زعيم الاستبداد، الكاريزمي هو المسؤول.

ويشير ظهور الحركات الشعبوية والقومية في الولايات المتحدة والمملكة المتحدة وفرنسا ودول أوروبية أخرى إلى أن القبلية آخذة في الارتفاع في الغرب. وقد ركزت الحركات الشعبوية رؤيتها على المهاجرين والعولمة عموماً. ولكن، كما هو الحال مع جميع أشكال القبلية، تشكل هذه الحركات

أكبر خطر على الفرد. فالتابعون ملزمون بالتعبير عن الولاء للقبيلة ورئيسها. ولكن لأن القبيلة لا تحتج بأي معارضة، فإن الأحزاب القبلية تميل إلى الانحلال بسرعة إلى فصائل متنافسة.

هناك تفسيرات كثيرة لما آل إليه عصرنا الجديد من السياسات القبلية. وبالنسبة للكثيرين، السبب الرئيس هو عدم المساواة الاقتصادية. وفي حين أن الأغنياء أصبحوا أكثر ثراء، فقد ترك العمال الريفيون من ذوي الياقات الزرقاء والفقراء ليدافعوا عن أنفسهم ضد المهاجرين واللاجئين وقوى العولمة. ولكن حتى لو أفادت العولمة بعض الجماعات والمناطق أكثر من غيرها، فإنها لا تفسر السياسة القبلية اليوم؛ في الواقع، انعدام العولمة في بعض المناطق يفسر القبلية.

ومن الجدير بالذكر أن معظم ناخبي ترامب لم يكونوا لا من الفقراء ولا من ذوي الياقات الزرقاء. ولكنهم يقيمون إلى حد كبير في المدارات الحضرية والمدن الصغرى التي لم تستفد من العولمة إلى حد كبير. ويتضح هذا الانقسام الحضري - الريفي نفسه في كل بلد شهد تصاعد الشعبوية القبلية في السنوات الأخيرة.

علاوة على ذلك، إذا كانت العولمة، وعلى وجه التحديد الهجرة، هي من دوافع عدم المساواة، فإن المدن الكبيرة التي يتقاسم فيها اللاجئون والمهاجرون والمجتمعات الأفقر نفس المساحة يجب أن تكون مسرحا للاضطرابات السياسية. وحتى في النمسا وفرنسا وألمانيا وهولندا والمملكة المتحدة وأماكن أخرى، تميل الأحزاب القومية والشعبوية إلى استقطاب مؤيديها خارج المدن الرئيسية.

وعلى الرغم من أن العولمة والهجرة يمكن أن تكونا نقاط ضغط سياسية، فإن جذور السلوك الانتخابي تكمن اليوم في ثلاثة تطورات مترابطة.

أولا، أصبح المواطنون في الغرب تدريجيا أقل تنظيما سياسيا وأكثر أنانية. وفي جميع الديمقراطيات الليبرالية، ظلت العضوية في الأحزاب السياسية تنخفض منذ فترة طويلة بسبب التغيرات التي حدثت بعد الحرب في التعليم والمعايير الاجتماعية والثقافة الشعبية التي تؤكد على التفكير النقدي والتعبير عن الذات. والنتيجة هي ما سماه عالم الاجتماع الأمريكي ديفيد ريسمان "الأفراد الموجهون داخليا" - الرجال والنساء أصحاب التفكير "الديكارتي" الذين يفكرون لأنفسهم.

وكان من شأن هذا التطور أن يكون إيجابيا بلا جدال لو لم يتداخل مع تحول الاقتصادات الغربية، الذي بدأ في أواسط التسعينيات، لفائدة نماذج النمو القائمة على التكنولوجيا، مما زاد الطلب على العلوم والتكنولوجيا والهندسة والرياضيات والمهارات. وبما أن نظم التعليم بدأت تركز بشكل أقل بكثير على العلوم الإنسانية، فإن المواطنين الذين أصبحوا أقل معرفة بالتكوين السياسي والتوجيه الذي تقدمه الأحزاب السياسية التقليدية، أصبحوا أكثر انفصالا عن القيم الإنسانية أيضا.

إن الهدف المنطقي لدراسة الأدب والتاريخ والفن - تعلم التعاطف، وتطوير ذكائنا العاطفي، والتوفيق بين التفكير النقدي والقيم العالمية - لم يختف مع فرص القيام بذلك. الافتراض الزائف بأن درجة العلوم الإنسانية أقل قيمة من درجة العلوم والتكنولوجيا في سوق العمل في القرن الحادي والعشرين لا يبشر بالخير لمسار الديمقراطية الليبرالية.

أما الاعتبار الثالث فهو امتداد للثاني: تنامي اعتبار التعليم العالي كسلعة وتسويقه في العقود الأخيرة. وبينما تتنافس الجامعات على الاعتماد، بدأت برامجها تتشابه بشكل متزايد. عملية إعداد "أفراد جاهزين للاختبار" تذكرنا بجملة أنا كارنينا ليو تولستوي: "أما بالنسبة لهذا التضخم في بطرسبورغ، فتبين من الآلات أن كل شيء على نمط واحد، وهو بمثابة قمامة ثمينة". وبالمثل، فإن تسويق المعرفة كسلعة تجعل الخريجين اليوم أكثر عرضة لتعويضهم "بالآلات" التي قامت بإنتاجهم.

وتساعد هذه التطورات الثلاثة مجتمعة على تفسير صعود فئة جديدة من الناخبين: ذوي مهارات عالية وأجور مرتفعة وسوء المعرفة بالقيم التي تقوم عليها الديمقراطية الليبرالية. وليس من المستغرب بشكل خاص أن هؤلاء الناخبين، الذين يفتقرون للتقاليد المشتركة للمعرفة وللتفاهم، يتجمعون حول الهويات القبلية واستسلام الذات لوعي جماعي.

وكان من المفترض أن تنتقل الديمقراطيات الليبرالية إلى ما هو أبعد من السياسة "البدائية"، نحو مجتمع من المواطنين المؤهلين. لكن قوة المواطنين - قدرتهم على تحديد مصالحهم والعمل بشكل فردي وجماعي للنهوض بها - تتطلب مجموعة من المهارات تختلف تماما عن تلك التي يتم التأكيد عليها اليوم.

*سامي محروم، رئيس مبادرة دعم السياسات الإبتكارية لدى كلية إنسياد لإدارة الأعمال

<http://www.project-syndicate.org>

.....

* الآراء الواردة لا تعبر بالضرورة عن رأي شبكة المنبأ المعلوماتية